نوابغ المدرسة المارونيّة الاولى

المطران اسحق الشدراوي

بقلم حضرة الخوري بطرس غالب

١ وطنه ونسبه

شدرا مسقط راس اسحق الشدراوي قريةٌ صغيرة في بلاد عكار مبنيّة على جانبي وادٍ يُطلق عليه اسمها ويصبُّ ماءه في النهر الكبير المعروف عند القدماء باسم إلوتروس (Eleutherus) الذي جُعل منذ اعلان استقلال لبنان الكبير حدًّا فاصلًا في الجهة الشمالية بين الحكومة الجديدة وحكومة العلويين . وتبعد القرية المذكورة عن مصبّ النهر بُعدها عن بحيرة قدس اي نحوًا من ٢٣ كيلومترًا . أما مدينة طرابلس فبينها وبين شدرا نحو ٤٤ كيلومترًا وهي واقعة الى الجنوب الغربي منها

سكّان القرية مؤلفون من نحو مائة عائلة اكثرها من الروم الارثوذكس ومن بقي مسلمون . اما الموارنة فكان آخر من قطنها منهم الخوري سمعان الذي أكره وعائلتهُ على هجر بلدتهِ من أمد غير بعيد فنزح الى عيون الشعراء في قضاء الحصن التابع لدولة العلويين . وسبب عمران تلك الجهة خصب اراضيها ووفرة محصولاتها من القمح والبقول ونتاج المواشي

وعلى مسافات قريبة لا تزال مقامات يحجُّ اليها سكان القرية والجوار كمقام أبي هُرَيرة والنبي يحيى وما شاكل وحولها اشجار تقادَمَ عهدها فاصبحت موضوع احترام الناس يجتمعون في ظلّ اغصانها ايّام العطلة والتنزّه

وأمّا تاريخ بناء القرية فلا نعلم عنهُ شيئاً سوى ان حوادث جرت في تلك الاقطار تدلُّنا على انها ليست بحديثة . وقد اصابها نصيب وافر من النكبات التي حلّت بتلك الجهات وسبب ذلك وقوعها في وادي النهر الكبير على الطريق المؤدية من الداخلية الى الساحل . ونذكر من تلك النوائب اجتياح أقوش الافرم الدُّنَيّة وعكّار ثم معركة

جرت بين الفرنجة والملك المظفّر ملك حمص. وزحف الملك الظاهر البندقداري بجنوده الى عكار (١٢٦٦) ونهبهُ شدرا وتخريبه اياها. ذلك فضلًا عن الزلازل التي دمرت تلك البقعة وكانت كثيرة تتلو الواحدة الاخرى. وكان لجور الحكّام تأثير فعّال في تنفير السكان وحملهم على تفضيل ارض الغربة على وطنهم الجميل. فعكار كلبنان كان يلجأ اليهِ المنهزمون من وجه الفاتحين الذين اسعدهم الحظ فملكوا البلاد السهلية المجاورة فكانوا اذا استتبَّ لهم الامر في البقاع او السواحل عمدوا الى اذلال الجليليّين لئلا يقلقوا راحتهم ويغزوا البلاد المفتتحة او يلتجئ اليهم اولئك الذين ارهقهم الظلم فابوا ان يخضعوا رقابهم لنير الفاتحين

وهكذا لمّا استولى المسلمون على سورية طمحت ابصارهم الى عكار ثم جاء الصليبيون فاجلوهم عنها وعقبهم المصريون فاسترجعوها. على ان الاتراك ما لبثوا ان طردوهم واقطعوها لاغواتهم وبكاواتهم فاستبدُّوا بها واستنزفوا مال اهاليها. ولو لم تكن البلاد غنيَّة لما اقام فيها بشر بل كانت امست قاعاً صفصفاً يمتع فيهِ البوم

اما زمن نزول الموارنة على عكار فترجح انهُ تمَّ قبل عهد الصليبيين بمدة لأنَّ التواريخ تذكر وجودهم في تلك البقعة يوم مرَّ جيش غودفروا ده بوليون وتشير الى مبادرتهم الى نجدته بالرجال والذخيرة وتقديمهم له اناساً يرشدون قومهُ الى المعابر حتى يصلوا آمنين الى القدس محطّ رحالهم

وكانت شدرا تابعة ابرشية عكار وعرقا على ما نظنّ. ونذكر من اساقفة تلك الابرشية المطران متاوس الذي عاش في الجيل الثالث عشر والمطران انطون الحصروني الذي لُقّب في كتابات الفرنجة بريمولیا Remolia[1]. امّا عرقا فلا يزال يلقّب بلقبها

---

١) ربّما كان المطران انطون الحصروني ينتسب الى عائلة بيت الارملة في بلدته. ونعرف من اخباره ان البطريرك شمعون الحدثي رسمه مطرانًا سنة ١٥٢٣ على كرسي قنوبين وركل اليهِ زيارة موارنة حلب ودمشق وجبة بشري وعكار. ثم اوفده الى قبرس لتفقد شؤون موارنتها فعمّر دير مار جرجس طالا وكنيسته. وفي سنة ١٥٢٤ اوفده البطريرك موسى الكساري الى رومية ليستمدّ له درع التثبيت فاعتقله القرصان وكان البطريرك اوعز اليهِ ان يمرّ بالثغور العثمانية لغرض سياسي ذكره في كتابته الى كارلوس الخامس امبراطور النمسا. وسلبه القرصان كل ما يده ثم اطلقوا سبيله بمقابل مبلغ وافر من المال. ولمّا بلغ رومية مثّل بين يدي الحبر الاعظم اقليمس السابع فنال حظوة لديهِ ثم اجابه الى ملتمسه وانعم عليهِ انعامات وافرة ومنح البطريرك

الاسقفي لساقفة الموارنة

ومن تلك الابرشية البطريرك موسى الحكاري من الباردة الذي انتقل الى راحة الابرار سنة ١٥٦٧ . وقبله البطريرك يوسف من شدرا وهو الثالث والثلاثون من بطاركة الموارنة على ما جاء في سلسلة بطاركة الموارنة الفاتيكانية المرضوعة باللغتين العربية والايطالية ولا نعلم ما لها من القدر لدى العلماء

ولقد أشكل علينا فهم ما ورد في المخطوطة الفاتيكانية التي رواها الاب لويس شيخو في كتابه «الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية» (ص ٧٢) حيث قيل عن تلامذة المدرسة المارونية القبرسيين انهم كانوا من جزيرة قبرس من ابرشية شدرا . فهل كانت شدرا كرسي مطرانية الحقت بها جزيرة قبرس واي متى كان ذلك ومتى بطل ؟ تلك اسئلة لا سبيل للجزم بها الان . عسى ان يتوفق المنقبون الى حلّ هذه المشكلة . اما ما نعلمه عن الموارنة انهم كانوا يقطنون قرى كثيرة عامرة في بلاد عكار واهمها القبيات ومنجز والباردة وشدرا وشويتا والبهلولية وبترزلا وعرقا وبينو الخ

وكان في قرية شدرا كنيستان احداهما كُرّست لتكريم العذراء المجيدة وتُعرف بكنيسة السيدة والدة الله ذكرها كتاب الجنازات المخطوط الموجود في المكتبة الوطنية الفرنسية عدد ١٢٥ الذي نسخه الراهب حنين سنة ١٥٥٥ لتلك الكنيسة . والكنيسة الاخرى أقيمت للقديس جرجس الشهيد وبقربها دير . قال الدويهي ان العرب كانوا يدعون هذا القديس «ابو بلوطة» من شجرة البلوط الكبيرة التي كانت قدام باب الدير . وكان القديس يصنع خوارق كثيرة في ذلك المقام فكبرت ثقة النصارى والمسلمين به حتى انهم كانوا يضعون في الدير غلالهم في اكياس دون

ورفده امتيازات عديدة وسلّم المطران منشورًا لجمع الاحسان في بلاد النصارى وكان البطريرك كأنه ان يطلب حماية الملك المسيحيين فاستحسن ان يلتجئ الى اشدّهم بأسًا في ذلك الوقت وكان كارلوس الخامس ملك اسبانية وعاهل النمسة فتوجه المطران انطون لمقابلته وقدّم له عريضة يستنجده لتحرير النصارى (وقد وهم الاب اليسوعي المكمّل لمجموعة الآثار الخطية في اخر المجلد الثاني ص٦١٦ في ظنّه ان القديسين هم الكهنة) . ثم في سنة ١٥٣٧ بعد عودته من رومية على ما نظن جاء الى حلب كما ذكر هو نفسهُ فاشترى الدار التي بجانب مار الياس واضافها الى الكنيسة وذكر الدويهي وفاتهُ سنة ١٥٣٩ على اننا اطلعنا على ورقة تدل على انه كان حيًّا في السنة التالية . والله اعلم

ان يقفلوا الابواب او يقيموا عليها حارساً وما كان احد يسرق منها شيئاً. وقد سادت نيأت بعضهم فحاولوا اختلاس الغلات المودعة في حماية القديس فعميت ابصارهم وما استطاعوا ان يهتدوا الى الباب (تاريخ الازمنة الخطي ١٥٥٧)

فالدير والمعبد كانا قد خربا من شدة الظلم واضطر الموارنة الى هجر القرية فالتزم البطريرك موسى العكاري ان يعقد اتفاقاً مع البطريرك الملكي دوروتاوس الثالث يوم اجتمعا في داريا الزارية سنة ١٥١١ ليخلص البقية الباقية من طائفته في تلك الجهات. ومفاد الاتفاق على ما ورد في سيرة البطريرك مكاريوس الحلبي (ص ٣٣) ان يكون الروم والموارنة شيئاً واحداً ويقضي كهنة الطائفتين احتياجات الرعية دون فرق ورخص بالزواج بينهما على ان تبقى كل طائفة على اعتقادها القديم وعلى عاداتها وطقوسها

ولكان يذهلنا هذا الاتفاق للاشتراك في الدينيات لو لم نكن نعلم ان البطاركة الملكيين قد تردّدوا مراراً في تلك الازمنة بين الكثلكة والانشقاق على انه مع ذلك حدثت مخالطة في الدينيات لم يهتم بها اذ ذاك الرؤساء الشرقيون جدَّ الاهتمام فاسفرت عن نتائج سيئة العاقبة. وان الكاثوليكيين تساهلوا في ما لا يستطيعون التساهل فيه واصبحوا مهيئي الاكثار لأن يتناسوا الفروق الاعتقادية بعدها امراً لا يؤبه له ويجعلوا الكل الاختلافات ولو جوهرية منزلة واحدة من الاهمية والاعتبار

ومهما يكن من الامر فان الاتفاق المنوه به لم يدم عهده. قال الدويهي ان مطران الملكية في سنة ١٥٥٠ طمع بموارنة عكار وعرقا واخذ النورية منهم سبع سنوات بل استولى على كنائسهم فسعى البطريرك موسى العكاري في سنة ١٥٥٧ لدى القاضي والامراء وكان بتوسيفا يحكمون تلك البلاد فنال منهم امراً بتجديد عمار دير مار جرجس شدرا المتقدم ذكره ويجمع النورية سبع سنوات لقاء ما كان جمعه مطران الملكية وكانت شدرا اذ ذاك تابعة لحصن الاكراد كما ورد في حاشية كتاب «الناموس المقدس» الذي خطه الشدياق الانجيلي سمعان الحدشيتي وكان الكتاب في حوزة الشدياق ابرهيم ابن الشماس يوحنا ابن الفحل من قرية شدرا

٢ مولد الشدراوي وسفره الى روما ورجوعه

هذا ما توصلنا الى معرفته عن القرية التي اصبح اسمها مشهوراً ببلاد اسحق

الشدراوي فيها سنة ١٥٩٠ . فانّه لما ترعرع وتوسّم فيه رؤساؤه النجابة والميل الى الفضيلة والدرس ارسلوهُ سنة ١٦٠٣ الى المدرسة المارونية في رومية واليك رواية سفره كما اوردها هو نفسه في مقدمة غراماطيقه السرياني قال :

« والذي نُعلم به محبتكم الواثقة وامانتكم الصادقة هو انه لمّا كان تاريخ سنة ١٦٠٣ مسيحية ارسل المرحوم البطرك يوسف بن الرزّ المطران المرحوم يوحنا الحصروني ابن الشدياق حاتم لحضرة بابا رومية الذي في ذلك الزمان كان اقليمس الثامن لاجل قضاء مصالح الطائفة وبعث معه اولاد اربعة ليتعلّموا في المدرسة التي البابا غريغوريوس الثالث عشر صاحب الذكر الصالح عمّرها في مدينة رومية لملّة الموارنة . واسامي الاولاد يوحنا بن الشدياق قورياقوس ومخائيل بن سعاده من قرية حصرون . فيوحنا بعد ما رجع للبلد ارتسم مطرانًا من البطرك يوحنا ابن مخلوف المرحوم الهدناني . ومكث في المطرنية اربعة شهور وانتقل الى ضيعته حصرون . ومخائيل ارتسم قسيسًا في مدينة رومية ولما رجع الى البلد صار خوريًا من البطرك يوحنا المذكور ولما توفّي على الكرسي الانطاكي سيدنا البطرك جرجس ابن عميرة الهدناني سنة ١٦٣٦ مسيحية في ٢٧ ك ١ ارسلهُ قاصده حتى يرمي الطاعة ويقفي لهُ مصالح غيرها عند سيدنا البابا اوربانوس الثامن وصار ذلك سنة ١٦٣٥ مسيحية في ١٥ حزيران . واسم الاولاد الاثنين الاخرين هو سركيس واخوه الفقير اسحق من قرية شدرا . فسركيس ارتسم كاهنًا في مدينة رومية وبعد ما رجع للبلد ومكث فيه نحو ثلاث سنوات عاد الى مدينة نابولي ومن هناك دخل الى بلاد فرنسة وهو الآن (١٦٣٦) في بلاد اسبانية في مدينة غرناطة طيّب بخير وعافية »

ثم تطرّق اسحق في مقدمته هذه الى ذكر ما عمله هو وسيرد ذلك بالتفصيل في وقته مردفينه بما اتّصل بنا من المعلومات المستقاة من مصادر اخرى . وقد اتفقت رواية الشدراوي هذه مع ما سرده الخوري مخائيل سعاده الحصروني في مقدمة الكلندار على انهما اختلفا في تاريخ انتخاب البطريرك جرجس عميرة ونظن ان ذلك نتج عن غلط مطبعي في مقدمة الكلندار المذكور ليس الّا

ولم يكن اسحق من الطلبة المتوانين بل انصبّ بكل قواه على العلم دون ان يهمل التقدّم في الفضيلة . ومن دلائل نشاطه انه ما اكتفى بان يخصّص اوقاته بمطالعة الدروس المفروضة والتمسّك بها بل اجتهد في ان ينفع تلامذة المدرسة بمعارفه ويسهّل على المستشرقين الاوربيين تعلّم السريانية كما صرح هو نفسه في مقدمة الغراماطيق الذي وُصف بالاسحاقي نسبة اليه قال :

٣ تأليفه للغراماطيق السرياني واشتغاله في رومية

« واما انا الفقير لمّا كنت اتعلم في المدرسة ارسل عمي المطران يوحنا الشدراوي المرحوم

يقول لي اني من كل بد وسبب اعمل وانلف كتاب غراماطيقاً سريانياً لاجل عازة (حاجة) ومن شأن معونة هؤلائك الذين يرغبون في ان يتعلموا ويتعودوا هذا اللسان المبارك الذي السيد المسيح وامهُ ورسلهُ وتلاميذهُ شرّفوه وقدّسوه ونطقوا به مثلما ذكر بعض معلمين ونصارى بلاد المشرق في قداديسهم وصلواتهم الالهية مستعملينه ليلاً ونهاراً. فاعتنيت بتعب عظيم وجمعت هذا الغراماطيق. ولمّا كملت علمي وارتسمت ملفاناً في بلد الافرنج طلب مني مدبر المدرسة الذي كان القديس يعقوب كسيون من جماعة اليسوعيين حتى قبل ما ارجع للبلاد اعمل نسخة الكتاب ابقيه لتلاميذ المدرسة يتعلمون فيه فصنعت كذلك ثم سافرت للبلاد. . .»

وقد نشطهُ ايضاً في تأليف الغراماطيق السيد فرنسيسكو إنقولي امين سر مجمع نشر الايمان المقدّس حاثّاً اياه ان يجعل كتابه مختصراً جامعاً مدرسيًّا على خلاف النسق الذي اتبعه البطريرك جرجس عميرة في غراماطيقه المعدّ للعلماء اكثر منه للتلاميذ. ولم يُطبع هذا الغراماطيق الا سنة ١٦٣٦ بناء على الحاح الخوري مخائيل سعاده رفيق الشدراوي في المدرسة والشماس جبرائيل ابن الخوري يوحنا عواد الحصروني وقد ذكر المؤلف مبلغ ما انفقه على طبعه فكان ١٥٠ غرشاً تبرّع بنصفها الخوري مخائيل المرقوم

ولما كان الشدراوي في رومية كلّفه مجمع نشر الايمان ان ينقل هو ويوحنا الحصروني من اللاتينيّة الى الكلدانية ومن الكلدانية الى اللاتينية كل الوثائق التي حرّرها الكرسي الرسولي ليسهّل على الكلدان امر رجوعهم الى الايمان والاعتراف به على ما تأمر الكنيسة الرومانية. فاتمّ التلميذان النشيطان هذا العمل بكل امانة فشهد لهما بذلك البابا بولس الخامس في رسالته الى البطريرك يوحنا مخلوف ونائبه المطران جرجس عميرة وتاريخها ٨ نيسان سنة ١٦١٤ ومما جاء فيها:

«وقد كان مفيداً جدًّا لتتميم هذه الاعمال ولذا موجباً لارتياحنا الكلي الجهدُ المشترك الذي بذله ولدانا الحبيبان يوحنا الحصروني واسحق الشدراوي تلميذا مدرستنا المارونية اللذان ترجما كما يجب بكل امانة واجتهاد جميع الكتابات اللازمة من اللغة اللاتينية الى الكلدانية ومن الكلدانية الى اللاتينية. وهذا نظلمكم عليه لتعزيتكم الخاصة ولتمنوا كل العناية بان تساعدوا في هذا العمل متى علمتم انكم اشتركتم فيه بعض الاشتراك»

اما هذه الكتابات فهي رسائل ثلاث لايليا بطريرك الكلدان منها اثنتان جمعيتان ثم اعترافه بالايمان ثم البراءة الرسولية وما أُلحق بها. أضف اليها اعمال مجمع آمد

التي طُبعت باللاتينية بعناية الاستاذ بولس سترُزّا القائل في مقدمة هذا الكتاب « ان المترجم هو الرجل التقي العالم اسحق الشدراوي الماروني الملفان في اللاهوت وتلميذ المدرسة المارونية» وكان الحبر الاعظم نفسه في رسالته الى بطريرك الكلدان (٣ حزيران سنة ١٦١٧) يوصي بالتراجمة الذين تعبوا كثيراً في هذه الخدمة ١

وترجم الشدراوي ايضاً قصيدةً لايليا المذكور مطلعها : « ايها المؤمنون بالله واحد مثلث الاقانيم» مدح بها الحبر الاعظم

وكان جبرائيل مطران مدينة حسن كيفا نظم قصيدتين بعد اختتام المجمع الانف الذكر مدح بهما البابا بولس الخامس فنقلها الشدراوي الى اللاتينيّة وطبعها الاستاذ سترُزّا المذكور ومطلع القصيدة الاولى : « ان بطرس قد ارسخك شمساً في فلك الكنيسة ونوراً لكل الجماعات واباً لكل الاباء» ومطلع الثانية : « الى الشمس الكاملة التي تنير الكنيسة باشعّتها »

فيظهر لك مما تقدم ان الشدراوي مكث في رومية نحواً من ١٥ سنة حصّل في اثنائها العلوم واستعدّ اكمل الاستعداد للدرجات المقدّسة ونال شهادة الملفنة في العلوم اللاهوتية والفلسفية وألقى على تلاميذ المدرسة دروس اللغة السريانية وهي تلك التي جمعها في ما بعد في غراماطيقه المشهور

٤ عوده الى وطنه وسياسته كاهناً ثم اسقفاً

وفي عام ١٦١٨ عاد الى لبنان وكان له من العمر ٢٨ سنة فرقّاه المطران جرجس عميرة الى الدرجات الصغار في السنة التالية وكان قد تزوّج قبل ذلك . ثم رقّاه البطريرك يوحنا مخلوف الى درجة الكهنوت وقلّده خدمة الموارنة في مدينة طرابلس فقام بها خير قيام مدة عشر سنوات (١ رقّي في اثنائها الى رئاسة كهنة تلك المدينة . وفي خلال ذلك توفيت زوجته بعد ان رُزق منها اولاد نعرف منهم الشدياق يعقوب والشماس يوحنا

وفي ٢٥ آذار سنة ١٥٢٩ سامه البطريرك يوحنا مخلوف مطراناً على كرسي

١) لا نعلم الى اي امر استند المثلث الرحمات المطران يوسف الدبس في قوله عن الشدراوي انه خدم مدينة بيروت مع ان المطران اسحق نفسه يقول انهُ خدم طرابلس

قنوبين وسلّمهُ تدبير ابرشية طرابلس. فاخذ يزور الرعية الموكولة الى عنايته غير ان السيد البطريرك نظرًا لعظم ثقته به كان يوعز اليه ان يتفقد الابرشيات الاخرى الخاضعة لسلطانه البطريركي

وقد تقدّمنا فقلنا ان المطارنة كانوا يساهمون على كرسي قنوبين ويُرسلون الى زيارة الرعايا وجباية النورية (١ وقد اوضح ذلك العلامة الدويهي في كتاب الاحتجاج قال في ردّه على التهمة التي موضوعها ان البطريرك يتفق هو والمطارنة على شيء معلوم لقاء الرسامة: «ان العادة في سيامة الاساقفة وتصريفهم ان البطاركة لم يصرّفوهم في الرعايا المنسامين عليها لكثرة الظلم بل الذين لا ديورة لهم ولا املاك ثابتة يشارطونهم على العشر في جمع العشور من الشعب فيخصّهم الثلث مما يجمع والثلثان يكونان للبطريرك»

وفي السنة التي سيم فيها الشدراوي اسقفاً ارسلهُ البطريرك يوحنا مخلوف الى حلب فاستقبله الموارنة فيها بكل ترحاب واجلّوا وفادته فاهتمّ بقضاء مصالح الطائفة في تلك المدينة وقد ذكر رحلته هذه وإقامته فيها المدة في تلك السنة في ٢٧ حزيران نزل بطرغزير في حلب وهو امر عجيب. أمّا مصالح الطائفة وكان افرادها قليلي العدد فهي الوقوف على احوالها الروحية وتثبيت الاحداث وفحص الاوقاف وازالة اسباب الخلاف وكان قد تفاقم لاسيما بين الكهنة. ودعا البطريرك الى ارسال الشدراوي اتصافه بالتقوى والعلم والحكمة وعدم وجود اسقف لحلب مقيم فيها. فقام المطران بهذه المهمة احسن قيام وجمع النورية كالمعتاد وتفقّد شؤون الرعية فعظمت هيبته لدى الجميع وافتخر به الموارنة «فصار له اعتزاز كثير منهم»

وفي السنة التالية فشا وباء الطاعون فتك بالسكّان فتكاً ذريعاً وكان الكهنة يتفانون في خدمة المرضى ويبذل اليسوعيّون جهدهم لاعانة المصابين الروحية والزمنية فاكتسبوا القلوب بعد ان كانت نافرة منهم بسبب ما اشاعه عنهم خصومهم من وطنيين واجانب (٢ ولا يبعد ان يكون المطران اسحق سعى هو ايضاً الى ازالة

---

١) ان النورية عين مقدارها في ذلك الوقت ١٤ غرشاً عن كل سنة تدفع للكرسي البطريركي

٢) حصل ذلك بدسائس البندقيين المحتلّين في حلب فانهم كانوا معادين لليسوعيين بغضاً

اسباب الثغور التي اوجدها اولئك ولاسيما انهُ كان لا يجهل فضل معلميهِ وفضيلتهم فتح للمرسلين اليسوعيين باب كنيسة الموارنة المقامة على اسم النبي الياس العظيم وتيسر لهم ان يؤسسوا اخوية للرجال ومدرسة للاحداث وان يؤلفوا الكتب الروحية والعلمية او يترجموها

وفي تلك الاثناء نظم الشدراوي قصيدتين احداهما في مدح البابا اوربانوس الثامن والثانية في البطريرك يوحنا مخلوف الذي رسمهُ اسقفاً . وكلتا القصيدتين في مكتبة مجمع نشر الايمان في رومية

وبعد ان قضى ما نُدب اليهِ عاد الى لبنان واستأنف فيهِ اعماله الرسولية الى ان ضاق العيش على النصارى عموماً والموارنة خصوصاً في انحاء الجبل وسواحله غب ان تغلّبت الدولة على الامير فخر الدين الكبير وتحالفت عليهِ الجيوش العثمانية واعوانها ابناء سيفا وسائر خصومه . ومعلوم ان النصارى بل سكان جبل لبنان عموماً مالوا الى الامير فخر الدين واستبشروا بحكمه لانهم في ايامهِ ذاقوا طعم الراحة التي حُرموها مدة اجيال وتمتّعوا بالعدل وخيّمت فوق ربوعهم السكينة . فلما غُلب الامير على امره اخذت الدولة وخصومه يقتصّون ممن لاذوا بهِ وانحازوا اليهِ كبارًا وصغارًا . وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في ترجمة البطريرك جرجس عميرة على اننا حبًّا بزيادة الافادة عن احوال البلاد نورد ما كتبهُ الدويهي في تاريخ الازمنة عن تلك الحقبة المشؤومة التي كاد يتحقق فيها استقلال لبنان التام لو لم تتغلب على افكار الامير فخر الدين مطامع تجاوزت الحدّ ففرّق قواتهِ في معاقل عديدة بعيدة بعضها عن بعض ولو لم يسُد بين الزعماء الحسد والمزاحمة على الوظائف عن طرق غير مشروعة بل مضرّة باستقلال البلاد ومستقبله . قال الدويهي :

« وفي سنة ١٦٣٣ كانت الركبة على الامير فخر الدين وذلك انهُ لما كثرت المعروضات فيهِ الى السلطان مراد امر كجك احمد ان يجرد الجيش للقبض عليهِ

وفي ربيع الاول الموافق لشهر ايلول خرجت العساكر من الشام بعسكر عظيم في نحو الاربعاء فكبسوا بلاد ابن الشهاب وغزوا وادي التيم ونهبوا وحرقوا وقتلوا ثم نزلوا الى الحان الجديد تحت حاصبيا . فاخذ خبرهم الامير علي وهو في صفد فزحف مع رجاله من صفد فبات في

بالحبر الاعظم الذي كان حرم جمهوريتهم لابتغائها حقوق الكنيسة وكان اليسوعيون يدافعون عنها فقطع البندقيون المواصلات الرسمية مع رومية وطردوا اليسوعيين

بانياس ثم قام ليكبس عسكر الدولة فبلغه عند السبع فنُكب على امره وقُتل قسمٌ من رفاقه واضزم الباقون

ثم قدم جعفر باشا قبطان البحر في الاغربة الى مينا طرابلس ثم الى بيروت فجمع السيفلية واصحاب الاغراض جيشاً كبيراً وجاؤوا على طريق البحر فانهزم المنيون من وجههم وتشتتوا ايدي سبا. فالامير حسن ابن الامير فخر الدين احتمى مع كاخيته الشيخ ابو نوفل نادر الخازن في قلعة المرقب (في عكار) والامير ملحم ابن الامير يونس التجأ الى آل طريه والامير فخر الدين ادخل عياله الى منارة نيحا (قرب جزين) واختبأ مع الشيخ ابي نادر ومسرور آغا وابي علوان وابي صافي في منارة جزين. اما كجك احمد فسار الى صيدا وكتب الى الامير يونس ابن من يؤمّنه وفي حال حضوره قتلهُ. ثم غزا جيش الدولة بلاد الدروز فنهبوا وقتلوا ثم استولوا على جميع القلاع واقطعوا بلاد الشوف الامير عليّاً ابن علم الدين اليمني. ثم توفقوا الى القبض على الامير حسين والشيخ ابي نوفل الخازن فارسلوهما الى حلب. وبعد ذلك حاصروا قلعة نيحا ومنارة جزين فاكتشفوا (بدسيسة) على القناة الموصلة الماء الى القلعة فرموا فيها الاقذار وافسدوا الماء فلم يعد من سبيل الى المقاومة ولاسيما ان العلة الذين كانوا بامر قائد الجيش العثماني اخذوا في قطع الصخر من فوق المنارة ومن اسفلها وواصلوا العمل حتى انتهوا اليها في اخر جمادى الثاني فلكوها فشدّ الامير فخر الدين واولاده منصور وحيدر ويلك وكواخيه ابا نادر الخازن ويوسف آغا بالوثاث وارسلوا الى دمشق»

اما الامير ملحم فاسلمه آل طريه الى كاخية كجك احمد ابرهيم باشا فحمل الى دمشق في قراخان فتمكن الامير من الهرب فطرح نفسه في النهر فحدّث الجيوش طالبه فلم تفلح. أما هو فاستفاد بظلام الليل لينجو بنفسه الى عرنته (قرب دمشق) وهناك اختفى ثلاثة اشهر عند شيخ القرية الذي كان من غرض بيت معن

اما الشيخ ابو نوفل فهرب من حلب وكفل الامير علي اليمني الشيخ ابا نادر فاطلق سبيلهُ من قلعة الشام. ومسرور آغا كفله يوسف آغا فسلموا جميعاً

«اما الامير فخر الدين واولاده فارسلوا الى استانبول حيث حُجز عليهم. لكن الامير ملحم لما علم ان الامير عليّاً اليمني يسعى في ابادة بيت معن واتباعهم لم يطق صبراً فجمع رجاله وهجم على اليمنية في قرية المقيرط فوق جدل معوش فظفر بهم وقتل منهم عدداً كبيراً وكان بين القتلى كاخية كجك احمد باشا. فانهزم ابن علم الدين الى طرابلس ومنها الى الشام. ثم بعد ان نجده كجك احمد باشا قصد الى البقاع وغدر برجال الامير ملحم في قب الياس فقتل منهم مقتلة فاضطرّ الامير ملحم الى الاختفاء في الشوف. وتجدّدت الشكوى الى الباب العالي على الامير فخر الدين فامر السلطان بقتله. وتولى السيفلية ايالة طرابلس واليمنية بلاد الشوف واخذوا ينتقصون عن مشايخ بيت من ليفتوهم عن بكرة ابيهم. ولما كان النصارى من حزب بيت معن لانهم لقوا منهم كل عدل وعطف اخذ الغالبون يتعيّبونهم فشرّدوا رجالهم في البلاد ينهبون ويقتلون بداعي التفتيش عن البقية الباقية من آل معن واتباعهم

وقد لخص الدويهي هذه الحالة فقال :

ومن كثرة الحكام والاغراض كثر الظلم وكلّفوا الرعايا عرض المال مالَين وقبضوا على المرابط (الجباة) والرؤساء لكي يقرّوا على رزق ابن ممن وبيت الخازن وغيرهم. وكان القس حنا بن جبنا الاجبماني متربّساً على دير مار مارون ويش مُران في قرية كفرحي فوشى به اهل بقسباً الملكيون (وكانوا من الروم الأرثذكس) عند ابن سيفا فقبض عليه واهانهُ وكلفهُ فوق طاقته فارتحل ومن ذلك الوقت خرب الدير وخربت ايضاً بقسباً »

اما موارنة الشمال ففروا الى الجبال العالية (راجع ما كتبناه في حياة عميرة ص٦٦ و٦٧) وكذلك نال المرسلين اضطهادٌ عظيم في كل سورية وقد اتُّهموا بانهم عضدوا الامير فخر الدين على الاستقلال

ومن جملة الذين هربوا من لبنان لانهم عُرفوا بحسن علاقتهم مع الامير فخر الدين ومشايخ بيت الخازن المطران اسحق الشدراوي فانه توجه الى حلب مع بنيه وعدد كثير من الموارنة حتى لا يقعوا في قبضة والي دمشق كجك احمد المستشيط غضباً على الامير ملحم واعوانه . فالعناية الالهية التي تُنتج من الشر خيراً سمحت بذلك لان احوال موارنة حلب كانت مضطربة في تلك الايام بسبب الاختلافات الحاصلة بينهم وبين كهنتهم . وكان هؤلاء من قرى لبنان المختلفة يلحقون برعيتهم النازحة الى المدن كما يستدل من جدول الكهنة الذين خدموا موارنة حلب في تلك الازمنة. فجاء المطران اسحق رسولاً يلقي السلام ويزيل دواعي الشحناء بحكمته وسلطته فاخذ الله بيده فتوفق الى تهدئة الخواطر . على انه لما اراد ان يضع حدًّا لسلطة المتقدمين في الكهنة لم يرضَ هؤلاء بما وضعه من الترتيبات لانها كانت تقلل من حقوقهم على ما زعموا فالتمسوا من البطريرك وكان لا يزال يوحنا مخلوف في قيد الحياة ان يقيلهم من وظائفهم . اما المطران اسحق فبرح حلب ليتعاطى الامر بنفسه ويوقف البطريرك على مجرى الحوادث الانفة الذكر وعلى تلك المشكلات لكنه علم وهو في الطريق انه لن يستطيع التخلص من يد الاتراك الواقفين له بالمرصاد ليبتزوا ماله ويضايقوه فعاد الى حلب واقرّ على الذهاب منها الى رومية رأساً رغم ما كان يتوقعه من المشقات في سفره

وقد اطلعنا في رسالة تاريخها ٢٤ ايلول من سنة ١٦٣٤ بعثها الاب مانيليه المرسل اليسوعي في حلب الى رئيسه العام الاب موتسيو ڤيتلّاسكي على بعض الاسباب التي

تعلل تلك الاضطرابات في حلب، فقال انه يحزنه ان يرى هذه القلاقل في بيت الله وما سببها سوى بُعد القطيع عن السيد البطريرك وحرمانه اسقفاً بل رئيساً يرشده ويزجره عند الاقتضاء. ان البساطة شاملة وهي قلّ ان تختلف عن الجهل ولولا وجود الاسقف المشار اليه (اسحق الشدراوي) لما سمع الشعب كلام الله فانه لم ينقطع عن الارشاد والوعظ في كل المدة التي قضاها في حلب. فلذا لا بد لكل ابرشية من اسقف خاص يعنى بامورها ويشرّون ابنائها الروحية ولاسيما مدينة حلب حيث يحيط بالموارنة هراطقة مختلفو النحل فيخشى من ان ينضم منهم نفر الى المنشقين وقد ضلّ بعضهم وانحازوا الى الهرطقة»

ثم أثنى الاب المذكور اطيب الثناء على المطران اسحق وقال انه لو أُلقيَت على عاتقه مطرانية حلب لنال تعيينه استحسان الجميع ولعمل هو خيراً كثيراً ففاحت من سيرته رائحة المسيح الطيبة، فانه ملفان في اللاهوت رصين حكيم تقي يعرف تمام المعرفة واجبات الاساقفة. فاني لا اوصي به فان له من شمائله الغراء خير موصٍ وقد عرفتموه تلميذاً لابناء رهبانيتنا وللمدرسة المارونية». وختم الاب المذكور رسالته سائلاً من رئيسه العام ان يهتمّ امر الشدراوي وبأمر وفديه الذين استصحبهما الى رومية ليتهذبا في المدرسة المارونية

وقبل ان يسافر الى رومية رأى المرسلين اليسوعيين في ضيقة فاقرضهم مئتي ريال ليفرّج في كربتهم على ان يستوفيها من الرئيس العام في رومية. وقد ذكر في مقدمة غراماطيقه سفره هذا فقال:

«ومن هناك (اي من حلب) ثبت الصليب ورجعت الى مدينة رومية وكان وصولي اليها باول يوم من سنة ١٦٣٥ مسيحية وحيث معي ولديّ الاثنين الشماس يعقوب واخاه الشماس حنا وهما الان في المدرسة يتعلمان وان يطمان (كذا) ثمرة صالحة لخدمة الله تعالى»

ونعرف من كتابة الاب مانيليه ان المطران اسحق سافر بعد ١٩ ت١ من تلك السنة لان الرسائل التي كلفه تسليمها للرئيس العام خمسٌ تاريخ الاخيرة منها ما تقدّم

وحدث انه في اثناء سفره انتقل البطريرك يوحنا مخلوف الى واحة الصالحين وخلفه جرجس عميرة الاهدني الذي نشرنا ترجمته قبلاً. فما علم الاب مانيليه بهذا النبأ المفجع حتى بادر الى توصية الرئيس العام بالمطران اسحق الشدراوي لانه رجل عالم

وتقي في مقتبل العمر (١٥ سنة) بعكس عميرة الذي كان متقدماً في السنّ وان يكن كالشدراوي متضلّعاً من العلوم وراسخاً في التقوى. على ان البطريرك جرجس عميرة كان قد انتخب في ٢٧ ك ١ من السنة الفائتة اي قبل رسالة الاب مانيليه بنحو ٢٥ يوماً فلم يرق انتخابه بعض المتنفذين فكتبوا الى الكرسي الرسولي يعترضون كما سبق لنا ان رويناه في حينه وارسلوا يخبرون المطارين الموجودين في رومية وهم سركيس الرزي مطران دمشق ورئيس رهبنة مار انطونيوس وجرجس مارون مطران قبرس واسحق الشدراوي مطران طرابلس

وقد طالعنا فيما خلّفهُ المطران جرجس جبقوق في مذكراته، وكان خصم البطريرك عميره، ان المطران اسحق الشدراوي كان في مقدمة الذين طالبوا موفدَي البطريرك بوثائق الانتخاب ومكاتيب المشايخ والاعيان واضطروهما الى العود الى لبنان للحصول عليها. على ان براءة التثبيت التي ارسلها اوربانوس الثامن للبطريرك عميره في اذار ١٦٣٥ اي بعد مرور شهرين على انتخابه تدلُّ على ان كل الدسائس ذهبت ادراج الرياح وان المطران اسحق الشدراوي لم يلتفت الى الشكاوى ولا اعارها اهتماماً كما ترى من مقدمة غراماطيقه. فضلاً عن ان الخوري ميخائيل سعاده لم يُرسل الى رومية الا في ١٥ حزيران من تلك السنة فيكون تثبيت عميرة سبق ارسال الموفد البطريركي بنحو ثلاثة اشهر بنيف. ثم ان تلك العرائض كان العلمانيون مصدرها دفعهم الى توقيعها وارسالها بعض الذين لم يَرُقهم انتخاب عميرة وهو احد تلاميذ المدرسة الرومانية المختلف عنهم بتهذيبه وعلومه. فانهم خافوا على نفوذهم ان يخفّ وروحهم ان تضعف كما ان العلمانيين المتنفذين رأوا سيطرتهم قد زالت في انتخاب البطريرك فامتعضوا وحاولوا ان يسترجعوا ما كانت العادات انالتهم اياه

ولما كان الشدراوي ممن لم تَفُتهم اسرار هذه المناورات نبذ العرائض وبذل جلّ عنايته لمساعدة الخوري ميخائيل سعاده في قضاء مصالح البطريرك وقبامره. واحلّ في بيته ضيفاً مكرّماً الخوري ميخائيل المذكور ورفيقه الشماس جبرائيل ابن الخوري يوحنا عواد الحصروني وكانوا جميعاً متعاضدين على خدمة البطريرك والطائفة

وفي اثناء اقامة الشدراوي في رومية وبناء على الحاح معارفه وتصريحهم ان ما القاه من الدروس السريانية يجب ان يُجمع في كتاب لما يُرجى منه من الفوائد لكل

من ينطق باللسان السرياني او يستعمله وخصوصاً طائفة الموارنة والمستشرقون تعاون المطران اسحق والخوري مخائيل المذكور على طبع الغراماطيق الذي اطلق عليه اسم الغراماطيق الاسحاقي الخوري مخائيل المرمأ اليه وابرهيم الحاقلي

وفي سفرته هذه قضى مدة في ميلانو درّس فيها اللغة السريانية ورتب مكتبتها

فما تقدم ومما سيتبع يتبيّن جلياً ان ما كتبهُ «الفارس دارفيو» (Chevalier d'Arvieux) عن الشدراوي مصوّرًا اياه متسوّلاً يدور اوربة لجمع الفلس(١ لا يقوى على نقض ما جاء في الكتابات العديدة التي يُثنى فيها اطيب الثناء على صفات هذا الحبر الفضال التقي الذي اضطرّ بحكم الظروف المعاكسة لهُ ان يبتعد عن ابرشيته للتخلص من اضطهاد الحكام والخصوم او للسعي في امور هامّة تنفع طائفته بناء على ايعاز رؤسائه

وقد عاد المطران اسحق الى الوطن قبل سنة ١٦٤٢ او في غضونها لاننا وقفنا على صورة صكّ لابي سلامه عويضه من دلبتا به يوقف املاكه بكاملها على دير مار شليطا مقبس ٥ على يد المطران اسحق وذلك سنة ١٦٤٢ وكان شهود الصكّ احدهم الشماس يوحنا ابن المطران اسحق والاخر الخوري يوحنا من اهدن

وقد تاكد لنا ان المطران اسحق هجر جهات لبنان الشمالي وطرابلس مركز اسقفيته الرسمي واتى كسروان وكان ولده الشدياق يعقوب مع ابنيه فضل الله ولطف الله استوطنوا زوق مصبح. ويزعم المطران جرجس حبقوق ان المطران اسحق هو الذي حمل اولاده على المجيء الى تلك الجهة وجدّد لهم فيها رزقاً وحارات وغير ذلك من ماله(٢ (لها بقيّة)

١) اطلب مذكراته Mémoires, II. 366-369

٢) يوجد الى اليوم حارة في زوق مصبح تُعرف بحارة المطران ترى في الطريق المؤدية الى عنطورا متى وقفتَ قرب دير البشارة للروم الكاثوليك. ويقال انّ تلك كانت حارة المطران اسحق الشدراوي